القدس: دراسات في التاريخ والسياسة
الأوراق البحثية لندوة القدس

أبو ظبي 25 أيار مايو 2009

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتجية ●

مقدمة:

تم الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية في عام 2009، ونتيجة للظروف التي تعانيها المدينة بسبب وجود الاحتلال الإسرائيلي لها، فقد احتفل كثير من الدول العربية بهذا الحدث، ضمن فعاليات خاصة بها تضامناً مع المدينة الأسيرة، وقد تنوعت هذه الاحتفالات التضامنية بين أمسيات شعرية ومسابقات إبداعية أو ندوات ثقافية. وقد ساهمت دولة الإمارات العربية المتحدة بهذه الاحتفالات الثقافية، وشارك مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في هذه المناسبة بندوة علمية عن القدس حملت عنوان مستقبل مدينة القدس، انعقدت في 25 أيار/مايو 2009، ودُعي إليها بعض الباحثين المتخصصين للمشاركة فيها، بالإضافة إلى دعوة بعض الشخصيات العربية التي لها تماس مع المدينة وأحوالها وواقعها وقضاياها. وقد طغى السياسي على ما عداه في هذه الندوة؛ وذلك بسبب الواقع التي تعيشه المدينة من احتلال وتهويد وأسرلة، منذ أن تم احتلالها عامي 1948 و1967.

إن مدينة القدس مميزة في كل المجالات: الدينية والثقافية والتاريخية والاستراتيجية؛ فهي ملتقى الأديان السماوية الثلاثة، وكل أتباع هذه الديانات يقدسونها ويربطونها بجوهر أديانهم،

● ينشر بالتنسيق مع مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتجية

بالإضافة إلى البعد التاريخي الذي يتمترس خلفه أتباع هذه الديانات. ولهذا، فقد شكلت هذه العوامل نقاطاً إيجابية وسلبية في الوقت نفسه، فهي تعزز من أهمية المدينة والاهتمام بها، ولكنها في الوقت ذاته تجعل الاتفاق بشأن الاختلاف حولها منطقة مغلقة لا التقاء فيها، إلا ضمن المكاسب الفردية فقط، دون الاعتراف بحقوق الآخرين، وهو ما تفعله إسرائيل التي احتلت المدينة منذ عقود بقوة السلاح وطردت أهلها منها، ومع ذلك ترفض التعاون من أجل إيجاد حل لهذا الموضوع الشائك في واقع المدينة المقدسة التي تعاني التغريب والتهويد كل يوم، وذلك بسبب القوة التي تتمترس خلفها، إن القوة هي السبب الأساسي لغياب الحل المنصف لهذه المدينة المقدسة.

إن تاريخ المدينة مفتاح مهم لفهم واقعها المعاصر وما تعانيه من تمزق، فقد بنيت في نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد على يد اليبوسيين، الذين يعودون في انتمائهم إلى الكنعانيين الذين هاجروا من جزيرة العرب في فجر النزوع إلى بداية الحضارة الإنسانية، واستقروا في فلسطين، وبنوا لهم مدناً منها مدينة القدس التي أسموها يبوس نسبة إلى قبيلتهم، ثم سُمِّيت فيما بعد بـ»أورسالم» نسبة إلى ملِكهم أو إلههم، والتي تعني في النهاية السلام، وبقيت المدينة مستقرة ومزدهرة حتى تعرضت للغزوات من مصر الفرعونية أو القبائل التي وفدت من العراق، مثل العابيرو أو بني إسرائيل من مصر أو أقوام أخرى أبرزها الفلسطيون أو شعب البليست القادم من الجزر اليونانية الذين احتلوا القسم الغربي الجنوبي من فلسطين. وتعرضت المدينة للغزو من القبائل اليهودية القادمة من مصر والتي تشكلت من أبناء يعقوب الذي هاجر بهم في قرون سابقة إلى مصر من فلسطين بسبب القحط والمجاعات التي حدثت.

احتلت القبائل اليهودية مدينة أورسالم في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، واستمر حكمهم فيها مدة قرن من الزمان، ثم انقسمت المملكة وضعفت، حتى أتاها الغزو الآشوري ثم البابلي وأنهى الوجود اليهودي في المدينة من خلال السبي والتدمير، ثم أعادهم كورش الفارسي بعد السبي بسبب مساعدتهم له ضد خصومه. وبقيت المدينة تتعرض للغزوات، وخاصة بعد احتلالها من قبل الإسكندر المقدوني وخلفائه، حتى جاء الاحتلال الروماني الذي دمر المدينة عدة مرات وخاصة عامي 70م و134م وأنهى الوجود اليهودي في المدينة المقدسة. وبقيت كذلك حتى فتحها العرب المسلمون في عام 15هـ بعد معركة اليرموك عندما تسلمها الفاروق عمر بن الخطاب سلماً، ووضع لها قواعد التعايش السلمي بين سكانها رغم اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

لقد كانت المدينة محل تقديس عند المسلمين قبل فتحها، فقد أسري بالرسول (صل الله عليه

وسلم) إليها من مكة، ثم عُرج به منها إلى السموات العلى، وقد توجه المسلمون في صلاتهم إليها مدة ستة عشر شهراً. كل ذلك جعل منها مدينة مقدسة لدى المسلمين، كما كانت معززة لدى العرب منذ أن أنشؤوها. وقد حافظ على هذه القدسية معظم الخلفاء والحكام المسلمون الذين سيطروا على الحكم ودخلت المدينة في حوزتهم؛ فقد اهتم بها الأمويون وقاموا ببناء المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، واستمر هذا الاهتمام بالمدينة من خلال تجديد المساجد أو إعادة بنائها أو التوسع فيها خلال العصور اللاحقة، ولم تتعرض المدينة لخطر حقيقي إلا بالغزو الصليبي لها عام 492هـ/1099م عندما احتلتها الجيوش الصليبية وقاموا بذبح أهلها الذين يزيدون على سبعين ألفاً، ولكن الله قيض لها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي استردها من الاحتلال الصليبي بعد زهاء قرن من الزمان، وأعاد تجديد المدينة وألبسها الثوب العربي الإسلامي من جديد.

لقد تعرض محمد غوشة لتاريخ المدينة في ذلك العصر وما بعده، وخاصة في العصرين المملوكي والعثماني، فقد تعاقب على المدينة السيطرة الأيوبية والمملوكية والعثمانية حتى عام 1917، عندما احتلتها بريطانيا بعد هزيمة الدولة العثمانية وانهيارها. وقد بين الباحث الاهتمام الذي أولاه الحكام والناس العاديون لهذه المدينة، وخاصة في مجالي عمرانها وتحصينها. وبين من خلال ورقته مَن تعاقب على حكمها وما جرى لها من بناء وتعمير أو تراجع وخراب لحقها، وما أضيف إليها من تطورات وأحداث، وخصوصاً ما يتعلق بالأعمال الخيرية والعمرانية.

بقيت المدينة في إهابها الإسلامي حتى بدأت الدولة العثمانية في الضعف، الأمر الذي أغرى الدول الغربية بالضغط عليها لفتح قنصليات لها في المدينة كانت مقدمة لدخول اليهود إليها والتجمع فيها، وبالتالي التكاثر حتى جاءت بريطانيا بسياستها الخفية والمعلنة، وهو التمكين لليهود في فلسطين من أجل بناء دولة لهم، وقد عملت خلال السنوات الثلاثين من احتلال فلسطين على إنجاز هذا الأمر، مما أدى في عام 1948، إلى إعلان الدولة اليهودية في فلسطين وطرد أهلها العرب منها في نكبة مشهودة من العالم، وكان من نتائج ذلك احتلال القسم الأكبر من مدينة القدس وطرد أهلها منها بالقتل والإرهاب. وقد تم احتلال الجزء الباقي الذي يشكل القدس القديمة في عام 1967. وقد مارست إسرائيل سياسة مبرمجة ومخططة من أجل تفريغ المدينة من سكانها العرب وإحلال اليهود مكانهم، ضمن خطتها الكبرى لتهويد المدينة وجعلها العاصمة الموحدة لليهود، وقد تعرض خليل التفكجي لبيان الممارسات والسياسات التي تنتهجها إسرائيل في

هذا السبيل في دراسته حول الصراع الديمغرافي والجيوسياسي في المدينة المقدسة.

بقيت المدينة مثار اهتمام جميع الأطراف، فالطرف المسيطر عليها يقوم في كل لحظة بتغيير الواقع لصالحه، ولا أحد يعترف بهذا التغيير، أو حتى يحاول أن يفعل شيئاً لوقف هذا التغيير الذي يعصف بالمدينة ويسلخها من ذاتها العربية التي رافقتها قروناً عديدة، ولم يتمكن الطرف العربي من استردادها بالقوة، فسعى إلى ذلك بالمفاوضات والمباحثات التي بدأت من بداية التسعينيات من القرن الماضي، كان حصيلتها توقيع اتفاقيات أوسلو التي تعاملت مع المدينة بعدة منطلقات؛ فتارة توليها الاهتمام، وتارة أخرى ترجىء البحث في شأنها حتى المرحلة النهائية، ولذلك ترك مستقبل المدينة إلى مرحلة لم تحدد؛ مما أدى في النهاية إلى بقاء الوضع على ما هو عليه. فلم يكسب الفلسطينيون شيئاً، نظراً للسيطرة الإسرائيلية عليها وتشبثها بها باعتبارها روح الشعب اليهودي، كما يزعمون!

وحاول أحمد عزم أن يبين مستقبل المدينة في عملية التسوية السلمية التي بدأت عام 1993 باتفاقيات أوسلو وماتزال جارية رغم تعثرها الكبير بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي، من خلال بيان موقع المدينة لدى الطرفين ومعالم الحل السلمي لهذه القضية الشائكة التي تتدحرج إلى الأمام مع قدوم كل حكومة إسرائيلية جديدة.

إن القدس تتأكل في كل لحظة، ومستقبلها لا ينبئ بخير، مادامت السيطرة على واقعها لطرف إسرائيل التي تبتلعها كل يوم بالمزيد من المستوطنات واستقدام المزيد من المستوطنين من مختلف أرجاء العالم، وتقوم بطرد سكانها الأصليين بهدم بيوتهم ومصادرتها ومنع الإقامة فيها، أو ببناء الجدار العازل، أو السعي إلى أسرلة سكانها بتقديم الخدمات لهم ومنع الطرف العربي من أن يقدمها لهم، ليرتبطوا بالسلطة المحتلة. إن القدس تحتاج إلى موقف موحد شجاع لوقف مصادرتها في مقدمة لاستردادها.